مقدمة

التعـرف إلى هذا المشـترك الثقافى – وبشـكل عملى – تصادف مع المؤتمـر الذى أقيـم بجامعة القاهرة فى صيـف ٢٠٠٦ وفيه أثير معنى المشترك ودلالاته..

وهى الفترة التى شـهدت رحيلى إلى الشـمال – تركيا – فى زيارة أيقظت لدى الكثير قبل أن أعاود الرحيل لاستعادة المعنى وتعميقه عبر مدريـد وباريس ثم روما قبل العـود إلى القاهرة فى ربيع ٢٠١١.. ربيع ثورة الشباب التى تفجرت فى القاهرة ..

وهو ما يدعونا هنا– والآن– إلى اسـتدعاء هذا المعنى – وفهم تأثيره فى تكوين الهوية الشـرقية بحثا عن المسـتقبل الذى لايحدث دون أن نتنبه إليه؛ ونعمل له...

المعنـى الذى يؤكد وجوده هنا لايتصـارع مع الغرب ولكن يتأكد من خـلال تعميق عناصر الهوية الشـرقية الخاصة بنا.. وهو ما نؤكده عبر إعـادة تعريـف المفهوم – المشـترك الثقافى – فى مفـردات كالعروبة أو دلالات المشـترك الدينـى التـى تضيف إلى الهوية هنـا معنى أعمق وأشمل يمكن أن نتعرف به إلى هويتنا ..وبشكل أدق فإن تأكيد الهوية هنا والآن لايكون بالعودة إلى عناصر هذا المشـترك الدينى أو السياسـى أو الحضارى وحسب وإنما – قبل ذلك وبعده – تأكيد «الهوية» بالنظر إلى الأمام لا إلى الخلف.

لقد استخدمت ضدنا كل أساليب الكراهية سواء فيما خلفته الأصولية المتخلفة أو منظمات إمبريالية معادية، وهنا لابد وأن نذكر كيف ساعدت قوى غربية فى إذكاء شعلة التعصب من حولنا لغويا وعنصريا ودينيا.. إلى آخـر هذه المنظومة التى تحـاول إعادة تكوين البنية وتخريبها عبر الهبوط إلى الخلف..

ويبـدو أننـا لا نجنى سـوى الألم والمرارة عندما نعـود إلى الخلف دائما!!.

وعلـى هذا النحـو، فعلى الرغم من السـعى لوجود هذا «المشـترك الثقافى» بين الغرب والشـرق، أو بين الغرب الاسـتعمارى – الأوروبى – والإمبريـالى – الأمريكـى – والشـرق الذى يعانى ويـلات التعصب والاسـتيطان الصهيونـى الغاصـب، فإننا يمكننا اسـتعادة دعوة هذا (المشترك الثقافى) الشرقى، فى منطقة الشرق – تحديدا – للخروج من عصـر العولمة بتجلياتها مـن هذه الأزمات المتواصلة إلى آفاق الوجود؛ فتأكيد الهوية يكون بالعود دائما إلى الأصل المشترك / الأديان؛ والأصل المشـترك/ الفكر السياسـى والحضـارى ؛ والأصل المشـترك / الوعى بالمستقبل وضرورته فى هذا السياق..

وهـو المعنى الذى تردد كثيرا فى العديد من اللقاءات أو المؤتمرات والدراسـات وإن تكن قليلة فإنها فاعلة فى تأكيد معنى الهوية الخاصة بنـا، فإلى جانـب هذا المؤتمر أو ذاك يمكـن أن نرصد تجليات الهوية الثقافية (المشترك الثقافى) فى عديد من مؤتمراتنا وجهود مفكرينا التى تماهت بين العديد من المؤلفات من أقصى المشـرق إلى أقصى المغرب فى

هذه المنطقة التى تنتمى إلى ثقافة الشرق العربى وفى الوقت نفسه ثقافة البحر الأبيض المتوسط، أى أن علاقاتها العالمية بالمركزية الحضارية علاقة أكيدة حاول أن يجتهد فيها من قدم لنا عنوانات دالة تتعدد فيها المساحات ويتبدد المفهوم حول هذا المشترك الذى يجب أن يحل: «مستقبل الثقافة فى مصر» لـ طه حسين أو مستقبل الثقافة فى مصر العربية لسليمان حزين مرورا بعديد من الكتابات عند على عبد الرازق ومحمد حسين هيكل وحسين مؤنس وصولا إلى محمد عابد الجابرى وسمير أمين ومحمد عماره وزكى نجيب محمود ومحمد غنيم وجلال أمين ووجدى زيد وخالد عزب ومحسن خضر.. وغيرهم من العلماء والمجتهدين فى هذا ..

صحيح إنه كانت هناك معالجات سابقة على مر العصور التاريخية للملامح والثقافات التى تشترك فيها الحضارات والثقافات المختلفة، غير أن هذا الإنجاز كان يتمركز حول طرح لفكرة المشترك الثقافى كنظرية بديلة أمام نظرية صراع الحضارات الغربية، فكان أن بدأ ذلك مبكرا حين دعا مفكرو مصر لمناقشة الفكرة، ثم تجريب هذا بطريقة عملية بين الثقافة المصرية والثقافات الصينية واليابانية والفرنسية والألمانية.

وهو ما تجسد أكثر فى عقد مؤتمر دولى بجامعة القاهرة أواخر ديسمبر ٢٠٠٦ واستطاع بذلك أن يكون من بين أهم المؤسسين لمفهوم «المشترك الثقافى».

كان على هذا المؤتمر أن يتنبه – وهو ماحدث بالفعل – إلى حقيقة تأكيد (الهوية) الشرقية لنا هنا، فى «الشرق الإسلامى» ولا نقول

فـــى «الشرق الأوسط»، فالمفهوم الأخير- الشرق الأوسط - مفهوم دخيل علينـــا ردده منذ فترة مبكرة شـــيمون بريـــز وبقية رمـــوز اللوبى الغربى المقيـــت؛ نقـــول «الهويـــة الثقافية» التى تمضى فى مســـاحة المســـتقبل التاريخى والجغرافى والمعرفى.

واستعادة المعانى الحقيقية لهذه المفاهيم تفرض نفسها.

أى تأكيد ثوابت الهوية الخاصة بنا هنا فى الشـــرق الإســـلامى، وهو ما خيم على هذا المؤتمر خاصة حين تنبه البعض إلى ذلك سواء فى ضرورة التنبه إلى الهوية الخاصة بنا فى الشرق هنا أو وصولا إلى علاقة هذه الهوية بتطـــورات العالم فى العصر الحديث ســـواء قبل انتهـــاء الحرب العالمية الثانيـــة أو بعدهـــا حين بدا الصـــراع جليا فى التمـــاس الحاد مع القوى العالميـــة متمثلا فى دخولنا إلى عصر العولمـــة والمرور من باب عصر العولمة حيث ترجمت حيلة الحادى عشـــر من سبتمبر الباب فى خديعة (صراع الحضـــارات) الذى بدأت تعانى فيه الهوية الشـــرقية (العربية) من عنف الصـــراع هنا مـــرورا إلى النقطة الفارقة التى يجب التنبه لها جميعا، وهى هذه النقطة التى يجب أن نتمهل فيها لنرى المستقبل الآتى وليس العودة إلى الـــوراء، المســـتقبل الذى نحن منه لا الذى يفـــرض علينا، وهو المعنى الذى تردد كثيرا فى عديد من التصورات التى عرفناها فى ذلك الوقت.

مـــن ذلك تردد هـــذا المعنى فى التصور الذى صـــاح به العديد من المثقفين الواعين بشكل مباشر فى كل هذه الترجمات المعاصرة وهذه الكتابات المتدفقة الثائرة القلقة إبان ثورة يناير.

النظر إلى الأمام بهذا التصور يجب أن يكون مضمرا لمعنى الهوية؛ هذا المشـــترك العربى خاصة والمشترك الذى يؤكد نوازع هذه الهوية الشرقية

لنا فى منطقة الشرق على وجه أخص كان هو المعنى الذى نستعيده فى قول الله تعالى للرسول (صلى الله عليه وسلم) :

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾ النساء: (١٦٣ - ١٦٤)

وقولـه تعـالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

البقرة: (١٣٠ - ١٣٣)

ثم فى إيجاز بليغ فى الآية الكريمة :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾

الأنبيـاء: (٩٢)

الدائـرة تجاوز المركز إلى مسـاحات المحيط البعيـدة متصلة بالمركز لا منفصلـة عنـه وهو ما يعـود بنا إلى تأكيد بدهية أخـيرة فى حلقات البدهيـات التـى نغفلها جميعـا، ونقصد بها هذه البدهيـة التى تؤكد هويتنا هنا فى الشرق؛ هذه الهوية التى وإن لم تخرج من الإطار الدينى

مـن التنبه المشـترك لهوية الأنبياء التى تصل بنـا إلى تحديد الهدف من الوجود وهو ما أوحى به الله عز وجل من المعنى العام للبشـرية من جهة، ثم هبوطا إلى الجنس البشـرى هنا فى الشـرق من جهة أخرى ليظل المعنى الكامن فينا هو التنبه للمشترك الثقافى – دينى أو سياسى أو حضـارى – والـذى يجمع كل الخيـوط الخاصـة بهويتنا هنا فى الشـرق، وهى الخيوط التى تصنع نسيجا واحدا يظل مناهضا لكل قيم الاسـتعمار والرأسمالية والإمبرياليـة والعولمة وبدعات حوار الحضارات وتحدى الحضارات، وما إلى ذلك بقصد النيل منا.

النظر إلى الأمام يجب أن يكون مضمرا لمعنى الهوية فى الدين؛ ثقافة هـذا المشـترك الذى يترجمه الواقع الحى من أننـا على أعتاب حقبة تحمـل لنا آمالا عريضة لابد من العبور إليها «شـريطة أن ننتبه إلى أن الأمـام لابد وأن ننظر فيه «أفرادا وجماعات» إلى المعنى الذى نردده هنا وذلـك بالعود إلى الكثير من أفكارنا وقيمنـا الموروثة لنراجعها فى مرآة الحاضـر العالمى بعقل متفتـح، حيث إن أملنا الأكبر هو إيجاد مجتمع عالمى يؤكد على أن تشارك فيه الإنسانية كى تعم الفائدة على الجميع، إن هذه المساهمة لهى بمثابة دعوة قوية للجميع للاتحاد معا سعيا نحو إيجاد هوية عالمية مشتركة».

إنها الهوية الشرقية العالمية القائمة..

□□□

وهو ما يصل بنا إلى اسـتعادة المعنى الإيجابى الذى قصده د. وجدى زيد فى بداية المؤتمر حين أكد لنا أنه لكى نتنبه إلى هذا المشترك الذى

يغلف الهوية الشـرقية ويؤكدها. يظل النظر إلى الأمام شـديد الأهمية، فهو يجمع الوعى الدينى بمفهومه المستقبل الخاص بتأكيد الهوية هنا فى الشرق،وقد تم تأكيد هذا المعنى فى التصور الذى صاح به فى اليوم الأول الـذى يترجمـه هذا المعنى هنا من أن « تأكيد الهوية ليس بالعود إلى عناصر هذا المشـترك الدينى أو السياسى أو الحضارى وحسب وإنما – قبل ذلك وبعده – تأكيد الهوية بالنظر إلى الأمام لا إلى الخلف».

وكان الرمز الأول لهذا المشـترك الثقافى تـردد كثيرا فى هذا الوقت حـين عبر عنـه فعرف المشـترك الثقافى على أنـه «كل المعانى والقيم والأحـكام البناءة التى تتفاعل بين الثقافات المختلفة، ويمكن أن تصبح معـبرا ونقـاط تواصل بين الحضـارات؛ ومن هنا، يتأكـد غياب هذا الالتباس بين المشـترك الثقافى والمشترك الدينى؛ إذ أن المشترك الدينى – كمـا حدد – يظل جزء من المشـترك الثقافى، وهو ما يعنى أن يكون هذا المشترك بين الأديان أساسا للرؤية الكبرى التى تحدد منظومة عالمية للأخلاق، وكيف تكون هذه المنظومة مدخلا لعلاقات أفضل بين شعوب العالم فى السياسة والفكر والاقتصاد والتكنولوجيا والبيئة».

وهو ما يصل فيه إلى حقيقة هامة هى حقيقة المنظومة العالمية للأخلاق، فقد أجمع أتباع الديانات الثلاث وأتباع الديانات غير السماوية على أن أحد الأسـباب الرئيسية للأزمات السياسـية والاقتصادية والبيئية التى تراكمـت فى عالم اليوم وازدادت حدتها هو غياب الرؤية الكبرى التى تستشرف المستقبل وتقلل من تراكم المشكلات المعقدة، وتعمق الإحساس بالخير العام للإنسـان أينما كان، وهذه الرؤية تأخذ فى الحسـبان كل

الأبعـاد التى يمكن التعامـل معها عند وضع معايـير عالمية للأخلاق. والمعايـير العالمية للأخلاق هى الأحكام والمعانى والقيم التى يتفق عليها المتدينون وغير المتدينين والتى تمثل المشترك بين الأديان.

وهو ما يشير فى السياق الأخير إلى النظر إلى الأمام..

لا ينبغى فى هذا كله النظر إلى الماضى بحجة المشترك الدينى، وإنما السـعى إلى الأمام، فهو الهدف الذى يدعو إليـه الدين الحنيف، وقد ارتجل فيها د.زيد هذه العبارة التى سـجلت لنا هذا المعنى على هذا النحو الدال:

أسطورة جميلة عميقة المعنى : البطل فيها يفقد حبيبته وترحل إلى العالم الآخر. وينصحه العرافون بأنه إذا أراد أن ينجح فى استعادتها فعليه ألا ينظر إلى الوراء بعد أن يخرج بها من عالم الموت!.

والنظـر إلى الأمام هو هو المعنى الذى أشـار إليه البعض – د.أحمد عبدالعـال – أيضا فى هـذه القصة التى قصها رجل من جماعة مأخوذة الشيروكى Cherokee وهى جماعة أمريكية أصلية فى الولايات المتحدة – حين كان يعلم أحفاده أمور عن الحياة. فقال لهم:

« ثمة صراع بشـع بداخلى. صراع بين ذئبـين. الذئب الأول يمثل الخوف والغضب والحسـد والحزن والجشع والكبرياء والذنب والرفض والدونية والكذب والكبرياء الزائف. بينما يرمز الذئب الآخر إلى الفرحة والسـلام والحب والأمل والهدوء والتواضع والعطـف والصداقة والكرم والحقيقية والرحمة والإيمان. وحدث الجد أحفاده أن نفس هذا الصراع يدور داخل كل واحد منكم وداخل كل واحد منا جميعا.

وأخـذ الأطفال فى التفكير لدقيقة ثم سـأل واحد منهم جده:- «أى الذئبين سيفوز؟».

فأجابه الجد: « الذئب الذى تغذيه».

العود إلى الأمام وفى الوقت نفسه إلى الجانب المضيء فى الإنسان..

بيد أننى قبل المناداة بالعودة إلى الأمام - برفض النظر إلى الخلف - اصطدمنا بعديد من الإشكاليات فى الشرق، ليس فى افتقاد هذا المشترك الثقافى بيننا فقط، وإنما قبل هذا وبعده، غياب هذا الوعى - المشترك - علـى المسـتوى العالمى فى عصر العولمة ، ومـن ثم، أصبحنا نعانى هذه الازدواجية - الفوضى على المستوى الشرقى هنا- ثم هذه الفوضى فى عصر العولمة - الفوضى على مستوى الجهل والتعصب ضدنا خاصة بعد حيلة ١١ سبتمبر - مرورا من عصر العولمة فى نهاية القرن العشرين إلى بدايات القرن الحادى والعشـرين، ليس بالكراهية التى استخدمتها أجهـزة المخابرات والمراكـز البحثية ضدنا وحسـب،وليس غيابا وراء نظريـة المؤامرة فى دراما ١١سـبتمبر المخادعة أو دراما «ويكيليكس» المريبـة وحسـب، وإنما أيضا وراء هذه المهزلـة القاتمة التى بدت فى تصريحات البابا فى الفترة الأخيرة فى روما مرورا بالرسوم وتداعياتها فى الدنيمارك والنمسا وصولا إلى انفجار كنيسة القديسين بالإسكندرية وأخواتها بين بغداد والإسكندرية مرورا بصحراء تونس والجزائر قبل أن نعود إلى دراما السودان وتداعياتها الدامية اليوم وننام ونقوم على معركة «الجمل» وتداعياتها فى الفترة الأخيرة .

وعلـى هـذا النحـو، لابد أن يكـون واضحا منـذ البداية، إلى أن الخلاص ممـا نحن فيه يجب أن يتم بالوعـى بالهوية، والهوية التى

ننتمـى إليها لا تحتوى على الهوية العربية وحسـب وإنما تتعدد فيها الهويات حين تتحدد قيم هذا «المشـترك الثقافى» فى عديد من المواقف والاثنيـات ووجهـات النظر المتباينة فى هذا المحيـط البعيد عن مركز الدائرة (المشترك الثقافى).

وعلى هذا النحـو، يكون حاصل جمع العديد من المعطيات والركائز المعاصـرة هذا الوعى الأخـير بالمعنى العام: الهويـة العربية+ الهويات الأخرى + الاثنيات + اللغويات + التقسيمات..إلخ = المشترك الثقافى

وهو ما يمكن التمهل معه أكثر عبر بعض الأحداث الأخيرة التى تشير إلى ضرورة التنبه إلى هذا المشترك(الهوية الثقافية) وتداعياته بيننا.

وهو ما تنبهنا إليه قبل أن نبحر فى بقية المشاهد.

وقد تصادف وأنا أتأهب لكتابة هذه الدراسـة تعرض السفينة مرمره للاعتـداء الصهيونى على أبناء المنطقة وتعرض الوعى فى الداخل لمعنى موقعـة «الجمل» ودلالاتها فى ميـدان التحرير وتعـرض معنى الوعى الثقافـى النبيـل للغبن والجحـود فى العديد من المواقـف التى تعكس الغياب عن الحاضر..

ولم تكن المصادفة آتية لعنف الاعتداء وضراوته بقدر ما كان اسـتعادة لواقـع غائب عنا جميعـا؛ واقع أصبح التنبه إليه ضـرورة للعيش فى بدايات القرن الواحد والعشرين، ضرورة للوعى لما يجب التنبه إليه من تلمـس واقع الثقافة، الهوية، ثقافة الهوية ومن ثم، البحث عن مفهوم هذا المشـترك الثقافى (المصـير)، المفهوم الذى أصبـح يتبدى لا للعود إلى تاريـخ مـاض، بقدر ما يتحدى العبور إلى المسـتقبل والعمل له من

الجنوب فى جنوب أفريقيا إلى الشمال فى شمال آسيا، فى هذه المنطقة التى تتعدد فيها الثقافات والأجناس والطوائف والإثنيات والمواقف. فى هذا المؤشر «المشترك الثقافى» الذى يؤكد المستقبل والمصير الواحد ..

والواقع أن تطور فهم الواقع –الخطاب الجديد هنا جاء ليؤكد البحث عن هذا المستقبل.

وهو واقع جاء –فى الأساس الأول – من طبيعة المضارع المستمر الذى نعرفه جميعا فى البحث عن المصير، ومن ثم، أصبحنا نتعامل فيه مع البدهيات حين طرحت أمامنا قضية الثقافة، ومستقبل الثقافة، والهوية، وطبيعة الصيرورة التى نعيش فيها جميعا .. فليس من الغريب أن هذا البحث عن مستقبل الثقافة جاء محملا بتركة الواقع إلى حد بعيد..

فحين طرحت قضايا المرأة والسلفية والوهابية..وما إلى ذلك من القضايا التى عرضنا لها فى كثير من اللقاءات والمؤتمرات، كان الطرح يعنى البحث عن المشترك الثقافى (المصير) عبر تجليات هذا الواقع.. خاصة وأن القضايا الأزلية كانت تستعيد طرحها عبر أصابع سعد زغلول الذى تتجه إلى الغرب – تمثاله فى الإسكندرية – فى مصر – أو أصابع كمال أتاتورك التى تتجه للغرب – عبر تمثاله فى أنقرة – تركيا –، أو عيون أبو الهول –التمثال– ووجه الذى يتجه إلى الشرق قبل هذا كله، وهو ما أعاد تساؤلاتنا إلى تعريفاتها الأولية، وسياقها الأخير.

وهو المعنى الذى كنت أستعيده – على المستوى الشخصى – وأنا أقف فى قاعدة المثلث الجغرافى بين برج القاهرة وتمثال سعد زغلول قبل أن أرحل من الأهرامات فى الجنوب حيث يتجه أبوالهول إلى

الشـرق.. وهل هى مصادفة أن يتجه أبو الهول إلى الشـرق؟.. إلى قمة المثلث عند شـباب الثورة، مـن رمز الخطر الغربـى (البرج) والوعى الشـرقى (التمثال) إلى قمة هذا المثلث بين أولادنا المقيمين فى ميدان التحرير..

قمة المثلث (ميدان التحرير) كانت تمثل لى – على المستوى الشخصى – عبورا من المعنى الإمبريالى المقيت للعم سام فى البرج، والمعنى الوطنى الجميل من سـعد زغلول من الماضى الذى ينتمى إلى الشـرق كما ينتمى إلى الغـرب كما يتمـاس مع حضارة البحر الأبيض المتوسـط إلى ملتقى مساحات المثلث عند ثورة الشباب الواعى المقيم فى يناير ٢٠١١ ..

وهو ما تمهلنا عنده فى موضع آخر ..

وهو ما تؤكده إشـارات رئيس الـوزراء التركى أردوجان فى زيارته الأخيرة لدول الربيع العربى فى سبتمبر ٢٠١١.

وهو ما نتمهل فيه الآن عند فهم هذا الدور.

والقضية هنا كانت تتحدد عبر هذه التغييرات الكثيرة عبر الصحف الورقيـة والفضائيات الإليكترونية فى اشـتعال أزمة العولمة بيننا وبنا والخوف من تهديد ثقافتنا عبر العديد من القيم التى تطرح علينا مثل حقوق الإنسـان والنظـام العالمى الجديد عبر حروب القرن العشـرين وتواصـلا مع تجليات الحرب الباردة فى نهايات القرن وبدايات قرن جديد افتتحه الشباب الواعى النبيل هنا؛ والآن ..

وعلـى هذا النحو، كانت تتحدد إشـكالية الدراسـة هنا عبر عدة تسـاؤلات ومصطلحات حائرة، عبر ثلاثة دوائـر تتماهى فى محيط

المنطقـة، ومابـين المقدمات والخاتمة كان لابـد أن نتمهل عند هذه الدوائر المعلقة عبر إشكاليات عديدة.

وهـو ما نقترب فيه أكثـر من الواقع الديموجرافـى والثقافى الذى تعيش فيه المنطقة عبر اكتشاف المشترك الثقافى والعود إليه دائما.

فأرجو أن نكون اقتربنا - أكثر - من هذا المشترك الثقافى (الهوية)، الوعى بالخلاص ورموزه المترامية بيننا.

وبعد: هذه شهادة كاتب هذه السطور فى ربيع هذا العام ..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

د. مصطفى عبدالغنى

□□□

تمهيـــد
على مشارف ثورة يناير

لا يمكن العبور من خطوط الطول والعرض فى المنطقة دون أن نصل إلى إشـكاليات كثيرة من ذلك هذه الإشـكالية التى تتحدد فى هذه التغييرات الكثـيرة عبر الصحف الورقية والفضائيات الإليكترونية فى اشـتعال أزمة العولمة بيننا وبنا والخوف من تهديد ثقافتنا عبر العديد من القيم التى تطرح علينا من مثل حقوق الانسان والنظام العالمى الجديد وما تعرض له المنطقة من مخاطر الإمبريالية الغربية سواء بجماعتها الانحيازية[1] – إسرائيل – أو بتأكيـد مفهوم «الفوضـى الخلاقة»: الأمريكيـة وتجلياتها فى المنطقة.. أو ما أثارته ثورة الشباب فى يناير ٢٠١١ الماضى بشكل خاص ..

فلنتمهل عند ثورة الفضاء الرقمى وثورة الشباب فى هذا العام ..

كيف نرى مصيرنا على مشارف ثورة ٢٥ يناير ؟

أمام هذا كله نجد أنفسـنا أمام العديد من المخاطر التى تهدد ثقافتنا أو مصيرنا فى هذا العصر بكل تجلياته الأخيرة فى الشرق عامة وفى مصر على وجه الخصوص ..

ومن هنا يتحدد البحث عن مستقبل للثقافة عبر الفهم الواعى لمفهوم الثقافة الإسلامية وذلك عبر تحديد العديد من المفاهيم : كالثقافة والهوية

(١) «الجماعة الانحيازية» مفهوم تردد كثيرا فى الدراسات العلمية المعاصرة.

والغـرب والمسـتقبل ..إلى غير ذلك عبر إعادة تضمـين خيوط الثقافة والهوية والدين فى نسيج واحد يجب التعامل معه بعد أن غبنا طويلا فى ظلالات القوميات المنبعثة هنا وهناك ودون التنبه إلى ما يجب أن تعرف به هـذا الاتجاه الفكرى أو ذاك خاصة فى علاقته بالحاضر.. ودون التنبه إلى ما يشـير إليه كل مايحدث - وماحدث - من إعادة وصياغة القضايا الطارئة بشـكل عام دون التمهل إلى النسـيج الواحد وراء حركة الأحداث والأكوان حولنا .

وقـد ضمن كل هذا فى مفهوم (مصير) يشـير إلى صيغة المشـترك الثقافى الـذى يجب التنبه إليه هنا فى المنطقة التى تمتد من الغرب - المغرب العربى- إلى الشـرق - أقصى ميـاه الخليج، والتى تتضمن خطوطـا جغرافيـة تهبط من السـودان جنوبا لتصعـد - عبر دارفور وكردفان- إلى أقصى الشـمال - فـى طهران وقونية -، وهى المنطقة التـى يوحدها اكتشـاف المشـترك الثقافى بين أبنائهـا فى الهوية والثقافة والمصير وما إلى ذلك مما يمكن أن نشير اليه فى رصد منظومة هذا المشترك.

وهى المنطقة التى تعبر عن أزمتها المعاصرة فى العديد من الأحداث ربما كان آخرها ما يتعرض له قطر حيوى مهم كالسودان.

إن مصـير هذه المنطقة يظل مرهونا بمعرفة أبنائها لجدلية العلاقة بـين قيم ومفاهيم كثيرة لابد من التنبه إليها قبل أن نغيب فى مصير مظلم يحاك لنا جميعا، ونقد الوعى بمفاهيم تتراوح بين النظرة المادية

والروحية ويكون حاصل جمع المادى والروحى تجليات الثقافة الإسلامية[1] التى تحتوى العديد من المفاهيم وتعيد تحقيقها بالتنبه إليها عبر بدهيات الواقع الزمنى ..الإشكالية التى نعرض إليها هنا عبر المفاهيم الأولى قبل أن نهبط إلى تطبيقاتها فى المدى المعاصر عبر الأمثلة..

وهـو ما يدفع بنا إلى الإبحار أكثر قرب الأزمة التى عرفناها بشـكل أفقـى فى العديد من القضايا والبؤر التى اشـتعلت فى الحقبة الأخيرة، وبشـكل رأسـى فى العديد من الأحداث ربما كان آخرها ما حدث فى السـودان بانفصال جنوبه وماحدث فى نفـس الوقت متمثلا فى انفجار كنيسة القديسين بالإسكندرية بالشمال..

وهى أزمة تمثل رمزا دالا فى معادلة لغياب هذا «المشـترك» وحضور السـودنة والعرقنـة واللبننة ..إلى غيرذلك من المصطلحات التى يسـعى لترويجهـا اليوم .. وقد يكون من المهـم أن نتمهل عند هذا المخطط فى

(١) لدينا بعض الكتابات التى كانت واعية أشد الوعى لحاصل جمع القيم النظرية المادية والإسلامية ربما كان آخرهم هو على عزت بيجوفيتش (٨ أغسطس ١٩٢٥ – ١٩ أكتوبر ٢٠٠٣) أول رئيس جمهورية للبوسنة و الهرسك وذلك بمؤلفيه «الإسلام بين الشرق والغرب» و «هروبى إلى الحرية».

انظر أيضا: مجلة «كيفونيم» ١٩٨٢التى تصدرها المنظمة الصهيونية العالمية، وثيقة بعنوان «استراتيجية إسرائيلية للثمانينيات»، وفى التسعينيات أصدر مركز ديان للأبحاث التابع لجامعة تل أبيب كتاب (إسرائيل وجنوب السودان).

– محاضرة حديثة لوزير الأمن الداخلى الصهيونى «آفى ديختر» فى سبتمبر ٢٠٠٨، ألقاها فى معهد أبحاث الأمن القومى الإسرائيلى.

http://akhbar.khayma.com/modules.php?name=News&file=article&sid-

http://www.tahseen-aboase.com/snews.php?id=1349-

http://midadulqalam.info/midad/modules.php?name-

الشـمال – المنطقة العربية – عبر ثلاث إشارات دالة لتحديد «المشترك الثقافى» وتأكيده قبل أن نعود إلى نموذجه الردىء فى الجنوب (جنوب السودان).

إن النظرة العامة إلى تاريخ المنطقة ترينا أنها مرت بالعديد من المواقف والمؤامرات الغربية التى أسـهمت فيها القوى الصهيونية والاسـتعمارية الغربية والإمبريالية الأمريكية فى آن واحد. وهو ما يمكن الإشـارة إليه عبر ثلاث متغيرات اتخذت من شـكل «الفوضى»غير الخلاقة إطارا عاما لها، وهى على النحو التالى:

أولا : الخطر الغربى

ثانيا: الخطر الصهيونى

ثالثا: خطر المصطلح

وهو ما نتمهل عنده أكثر قبل أن نسعى إلى تجليات «المشترك الثقافى» وأهميته ..

أولا: الخطر الغربى

إن مراجعة الأحداث فى هذه الفترة يمكن أن تؤكد السعى لتمزيق هذا «المشـترك الثقافى» بين دول المنطقة، والمراقب المتأنى يلحظ – والأمثلة لاتنتهى – كيف بدأت الحرب اللبنانية الأهلية فى منتصف سبعينيات القرن الماضى والتى استمرت ستة عشر عاما وسبعة شهور ومعنى اغتيال النائب معروف سـعد، ثم أحداث صيدا، و حـادث عين الرمانة الذى عكس دلالة الصدام المارونى الفلسطينى، حين تم إلقاء القبض قبل وقوع

الحرب هناك بأيام على شبكة عملاء لإسرائيل، وحين قامت تفجيرات مؤلمة بين المدنيين فى المناطق المسيحية والمسلمة، وفى المناطق التى يقطنها الفلسطينيون؛ لكى تضرب إسرائيل لبنان بعضه ببعض تمهيدا لتقسيمه.. وحين عرفنا مذابح الأردن ضد الفلسطينيين التى كان من ورائها مجموعات تطلق النار على الطرفين حتى نجحت فى تحقيق الفتنة وإشعال الحرب والمذابح..

وكان من السهل فى هذا التعرف إلى مَن يقف وراء التفجيرات فى أسواق وأحياء ومعابد العراق خاصة وقد ألقى القبض على شبكات تابعة للمخابرات الإسرائيلية، لقد ألقى القبض عليهم قبل تنفيذ اعتداءاتهم، وبصحبتهم سيارات مفخخة بعشرات الكيلو جرامات من المتفجرات والمواد الحارقة وقبل هذا وبعده معنى هذه التصريحات التى أدلى بها اللواء عاموس يادلين الرئيس السابق للاستخبارات الحربية الإسرائيلية «أمان» فى نوفمبر ٢٠١٠ خلال مراسم تسليم مهامه للجنرال أفيف كوخافى حين قال: «إن مصر هى الملعب الأكبر لنشاطات جهاز المخابرات الحربية الإسرائيلية، وإن العمل فى مصر تطور حسب الخطط المرسومة منذ عام ١٩٧٩»، وهوما رأينا رموزه وتجلياته فى نجع حمادى والإسكندرية بعد ذلك.

هذه هى الفترة التى قال فيها المسئول الإسرائيلى بوضوح وبالحرف الواحد «لقد أحدثنا الاختراقات السياسية والأمنية والاقتصادية والعسكرية فى أكثر من موقع، ونجحنا فى تصعيد التوتر والاحتقان الطائفى والاجتماعى؛ لتوليد بيئة متصارعة متوترة دائما ومنقسمة إلى أكثر من

شـطر، فى سـبيل تعميق حالة الاهتراء داخل البنية والمجتمع والدولة المصريـة؛ لكـى يعجز أى نظام يأتى بعد حسـنى مبـارك عن معالجة الانقسام والتخلف والوهن المتفشى فى مصر».

وقدم يادلين الذى كان أحد المرشـحين لرئاسة الموساد خلفا للجنرال مائير داجان صورة تفصيلية لعمل الاستخبارات الحربية الإسرائيلية فى فترة رئاسـته داخل أراضى عدد من الدول العربية مثل مصر والسـودان وسوريا ولبنان خاصة حين اعترف :

«لقـد أعدنا صياغة عدد كبير من شـبكات التجسـس لصالحنا فى لبنان، وشـكلنا العشـرات مؤخرا، وصرفنا من الخدمة العشرات أيضا. وكان الأهم هو بسط كامل سيطرتنا على قطاع الاتصالات فى هذا البلد. المـورد المعلوماتـى الذى أفادنا إلى الحد الذى لم نكن نتوقعه، كما أعدنا تأهيل عناصر أمنية داخل لبنان، من رجال ميليشيات كانت على علاقة مـع دولتنا منذ السـبعينيات، إلى أن نجحت وبإدارتنـا فى العديد من عمليات الاغتيال والتفجير ضد أعدائنا فى لبنان. وأيضا سجلت أعمالا رائعة فى إبعاد الاسـتخبارات والجيش السورى عن لبنان، وفى حصار حزب الله».

واعتبر يادلين أن اغتيال القائد العسكرى اللبنانى عماد مغنية، واحدا مـن أخطر العمليات التى قامت بها إسـرائيل فى السـنوات الأخيرة، وأشـار إلى أن الاستخبارات الإسرائيلية كانت تطلق عليه الاسم الكودى «الساحر».

واسـتطرد «اسـتطعنا الوصول إليه فى معقله الدافئ بدمشق. والتى يصعب جدا العمل فيها. لكن نجاحنا فى ربط نشـاط الشبكات العاملة

فـى لبنـان والأراضى الفلسـطينية وإيران والعراق والمغـرب. مكننا من إحـكام الخناق حوله فى جحره الدمشـقى. وهـذا يعتبر نصرا تاريخيا مميزا لجهازنا على مدار السنين الطويلة».

وأشـار يادلين إلى أن جهـاز العمليات الإسـرائيلى وصل إلى العمق الإيرانى. وقال:

«سـجلنا فى إيران اختراقات عديدة. وقمنا بأكثر من عملية اغتيال وتفجير لعلماء ذرة وقادة سياسـيين، وتمكنا من مراقبة البرنامج النووى الإيرانى الذى اسـتطاع كل الغرب الاستفادة منه بالتأكيد. ومن توقيف خطر التوجه النووى فى هذا البلد إلى المنطقة والعالم».

وتعبر لنا المصادر الصهيونية خاصة على ذلك حين نقرأ أن إسرائيل تخطط لتقسيم مصر إلى ثلاثة مناطق.. وهو ما صرَّح به – بالفعل – عدد من قـادة العدو، وورد ذلك على صفحات منشـوراتهم وبروتوكولاتهم.. فمن قبل صرح عدد من قادة الاحتلال الصهيونى بمخططات التقسيم تلك بشـكل سافر، من ذلك أيضا ما صرح به آفى ليختر وزير الأمن الداخلى الصهيونى السـابق خلال وجوده على رأس الـوزارة، حول الهدف من اسـتهداف السودان. يوم ١٠ أكتوبر ٢٠٠٨، بعنوان: الهدف هو تفتيت السودان وشغله بالحروب الأهلية، فقال: السودان بموارده ومساحته الشاسعة وعدد سـكانه يمكن أن يصبح دولة إقليمية قوية، وقوة مضافة إلى العالم العربى.

وقد يكون من المهم هنا استعادة ماجاء فى كتاب وثائقى صدر عام ٢٠٠٣ عن مركز ديان لأبحاث الشرق الأوسط وأفريقيا بجامعة تل أبيب للعميد

فى المخابرات الإسـرائيلية لموشى فرجى يحمل عنوان «إسرائيل وحركة تحرير جنوب السـودان – نقطـة البداية ومرحلة الانطلاق».. جاء فيه أن جون جارنج : حصل على دورة عسـكرية فى كلية الأمن القومى فى إسـرائيل ويذكر الكتاب: أن أهم الخبراء الإسرائيليين الذين تعاملوا مع جارنج هم رئيس الموسـاد السابق: أدمونى وديفيد كامحى، وإيلياهو بن إيليسار أول سفير لإسرائيل فى مصر وأورى لوبرانى .

وكشفت وثائق إسرائيلية قديمة تحتوى على بروتوكولات هيئة رئاسة أركان الجيش الإسـرائيلى، أن القائد العسكرى والسياسى البارز موشيه ديان كان يخطط لاحتلال القاهرة ودمشـق فى سـبيل توسـيع حدود إسرائيل وسيطرتها على المنطقة.

وحسب ما كتبه المؤرخ والباحث الإسرائيلى الأميركى جاى لارون، فإن ديان كان قد وضع هذه الخطة فى فترة مبكرة – عام ١٩٥٥ – حينما كان رئيسا لأركان الجيش. وعرضها على رئاسة الأركان فى نفس العام، كـ «خطة جارور»، يتـم الإعداد لها بدقة ثم توضع فـى الجارور ليتم تنفيذها عندما تنشأ الظروف لذلك.

وفصّل ديان – بحسـب المؤرخ – أمام جنرالات الجيش فى تلك الجلسـة تفاصيل الخطة ومراحلها التدريجية على النحو التالى: ضربة أولية لمصر تهدف إلى احتلال قطاع غزة وشبه جزيرة سيناء حتى قناة السويس، وبعد ذلك احتلال القاهرة، احتلال الضفة الغربية حتى الخليل فى المرحلة الأولى، ثم الوصول إلى نهـر الأردن فى المرحلة الثانية، وفى لبنان يتم احتلال الجنوب اللبنانى حتى نهر الليطانى، وفى سورية احتلال الجولان وصولا إلى دمشق .

والرسائل المتبادلة بين بن جوريون وموشى شاريت عام ١٩٥٤، الداعية إلى إقامة دويلة مارونية فى لبنان فى اتجاه السعى لتقسيمه لعدة دويلات طائفية على النمط الصهيونى .

المعروف أن الكونجرس الأمريكى قام - بالفعل - عام ٢٠٠٧ بإصدار قرار يطالب بتقسيم العراق.

أما تنفيذ عملية فصل الجنوب السودانى عن العالمين العربى والإسلامى، فلقد بدأت خطواتها منذ منتصف تسعينات القرن الماضى.

وهو ما يعود بنا ثانية إلى عاموس يادلين الرئيس السابق لجهاز المخابرات الحربية الإسرائيلية «أمان» فى نوفمبر٢٠١٠ خلال مراسم تسليم مهامه للجنرال أفيف كوخافى حين اعترف فى هذا الصدد بدور إسرائيلى واسع فى مساعدة الحركات الانفصالية بالجنوب السودانى، قائلا: «لقد أنجزنا خلال السنوات الأربع والنصف الماضية كل المهام التى أوكلت إلينا واستكملنا العديد من التى بدأ بها الذين سبقونا، أنجزنا عملا عظيما للغاية فى السودان، نظمنا خط إيصال السلاح للقوى الانفصالية فى جنوبه، ودربنا العديد منها، وقمنا أكثر من مرة بأعمال لوجيستية لمساعدتهم، ونشرنا هناك فى الجنوب ودارفور شبكات رائعة وقادرة على الاستمرار بالعمل إلى ما لا نهاية، ونشرف حاليا على تنظيم الحركة الشعبية هناك، وشكلنا لها جهازا أمنيا استخباريا». وتصريحات المسئول الإسرائيلى هنا لا تخفى ..

ثانيا : الخطر الصهيونى

والواقـع أن الدور الغربـى – الإمبريالى الأمريكى والصهيونى – كان يسبق هذه السنوات من فترة مبكرة حين نرى تنامى الدور الأمريكى فى العديد من مناطق الشرق عامة والشرق العربى على وجه أخص. وهو ما يتمثل هنا – على سبيل المثال– فى المشروع الذى عرف بمشروع برنارد لويس وبه العديد من صور هذه الفوضى «غير الخلاقة» التى تسعى إليها فى المنطقة القوى الإمبريالية الغربية بالتحالف مع الخطر الصهيونى.

وسـوف نضرب مثلين اثنين لمفردات هذا المخطط فى كل من المشرق العربى – الجزيرة العربية والخليج وما حدث فى السـودان – مرجئين النصوص إلى مابعد ..

●● إن هـذا المشـروع –وهنـا المثـال الأول –اعتمدته القـوى الغربية والصهيونية لسياسـتها المسـتقبلية فى الشـرق ويقـوم على النحو التالى:

– فـى عام ١٩٨٠م والحرب العراقية الإيرانية مسـتعرة صرح مستشـار الأمـن القومى الأمريكى «بريجنسـكى» بقولـه: «إن المعضلة التى سـتعانى منها الولايات المتحدة من الآن (١٩٨٠م) هى كيف يمكن تنشيط حرب خليجية ثانية تقوم على هامش الخليجية الأولى التى حدثـت بين العراق وإيران تسـتطيع أمريكا مـن خلالها تصحيح حدود «سايكس– بيكو».

– عقـب إطـلاق هذا التصريـح وبتكليف مـن وزارة الدفـاع الأمريكية «البنتاجـون» بدأ المؤرخ الصهيونـى المتأمرك «برنارد لويس» بوضع

مشروعه الشهير الخاص بتفكيك الوحدة الدستورية لمجموعة الدول العربية والإسلامية جميعا كلا على حدة. ومنها العراق وسوريا ولبنان ومصر والسودان وإيران وتركيا وأفغانستان وباكستان والسعودية ودول الخليج ودول الشمال الإفريقي.. إلخ. وتفتيت كل منها إلى مجموعة من الكانتونات والدويلات العرقية والدينية والمذهبية والطائفية. وقد أرفق بمشروعه المفصل مجموعة من الخرائط المرسومة تحت إشرافه تشمل جميع الدول العربية والإسلامية المرشحة للتفتيت بوحى من مضمون تصريح «بريجنسكي» مستشار الأمن القومى فى عهد الرئيس «كارتر» الخاص بتسعير حرب خليجية ثانية تستطيع الولايات المتحدة من خلالها تصحيح حدود سايكس بيكو بحيث يكون هذا التصحيح متسقا مع الصالح الصهيونى أمريكى.

- فى عام ١٩٨٣م وافق الكونجرس الأمريكى بالإجماع فى جلسة سرية على مشروع «برنارد لويس»، وبذلك تمّ تقنين هذا المشروع واعتماده وإدراجه فى ملفات السياسة الأمريكية الاستراتيجية لسنوات مقبلة.

وهو ما يصل بنا إلى المثال الآخر عبر مخطط معاصر تشارك فيه القوى الصهيونية أيضا..

●● نجد طرحا مريعا لهذا المخطط فى جنوب السودان منذ عام ١٩٧٢، عندما نجحت واشنطن، بدفع من مجلس الكنائس العالمى، فى التوصل إلى اتفاقية أديس أبابا بين نظام الرئيس السودانى فى هذا الوقت – جعفر النميرى – وحركة «أنانيا»، قبل أن يتكرر

السيناريو نفسه من خلال الرعاية الأمريكية لاتفاقية السلام الشامل فى عام ٢٠٠٥ بضغط من مجموعات الضغط الداعمة للحركة الشعبية لتحرير السودان.

والعود إلى أحداث هذه الفترة يرينا أن الدعم ما كان ليتحقق لولا نجاح الحركة الشعبية لتحرير السودان، منذ إعلان تمردها فى عام ١٩٨٣، فى استغلال العامل الدينى فى حربها ضد حكومات الشمال، وتصوير الصراع على أنه صراع بين المسلمين والمسيحيين من جهة، وبين العرب والأفارقة من جهة ثانية؛ فمنذ بداية تسعينيات القرن العشرين، نشطت مجموعات يمينية أمريكية، تتصدرها حاليا «جويش وورلد سيرفس» التى تضم منظمات «سيف دارفور» و «اينـاف» و«هيومانتى يونايتد» و «جينوسايد انترفنشن»، إلى جانب مجلس الكنائس العالمى وعدد من مراكز الأبحاث، لمصلحة دعم الحركة الشعبية لتحرير السودان كما ضغطت هذه المجموعات على الإدارات الأمريكية المتعاقبة لإجبارها على تبنى سياسات متشددة تجاه نظام الرئيس السودانى عمر البشير، والدفع باتجاه التوصل إلى اتفاق سلام ينهى الحرب الدائرة فى الجنوب.

وأثبتت هذه المنظمات، خلال العقدين الأخيرين، قوة تأثيرها وخطورته. وبعدما نجحت فى التغلب على دور اللوبيات الاقتصادية، التى كانت تسعى إلى تشجيع مبدأ الحوار مع نظام البشير للاستفادة من الاكتشافات النفطية الجديدة فى السودان، أقنعت الكونجرس الأميركى فى عهد بيل كلينتون بضرورة ضم السودان إلى لائحة الدول الراعية للإرهاب، مستغلة استضافة النظام السودانى لزعيم تنظيم «القاعدة»

أسامة بن لادن، وعدد من القادة الفلسطينيين المناهضين للأمريكيين. كما وقفت وراء تبنى الكونجرس الأمريكى عقوبات اقتصادية على السودان فى عام ١٩٩٦، قبل أن تدفع، مجددا، باتجاه تشديدها وصولا إلى حد فرض حظر الأسلحة على السودان بعد اتهام الحكومة السودانية بالتطهير العرقى فى الجنوب.

بيد أن هذا التشدد لم يمنع المنظمات من تشجيع الإدارة الأمريكية على مواصلة مساعيها الهادفة إلى تسوية الصراع، من خلال تقديم مبادرات لجمع الحكومة السودانية والحركة الشعبية فى مفاوضات مباشرة. ومع وصول جورج بوش الابن إلى الرئاسة، مارست جماعات الضغط المؤيدة لجنوب السودان الدور نفسه، لكن بثقل أكبر. تقول مصادر هذه الفترة أن القس جون دانفورث، الذى عيّنه بوش فى عام ٢٠٠١ مبعوثا خاصا للسودان، كان قد أدى دورا رئيسيا فى التوصل إلى اتفاقية السلام، بعدما أمنت له اللوبيات وسيلة إضافية للضغط على الخرطوم من خلال نجاحها فى إقناع الكونجرس الأميركى بإقرار قانون سلام السودان أواخر عام ٢٠٠٢ بعد سنوات من التأجيل.

وبالتزامن مع إقرار المشروع، انطلقت جولات من المفاوضات الجادة بين الحكومة السودانية والحركة الشعبية لتحرير السودان، أفضت فى نهاية المطاف إلى توقيع اتفاقية «نيفاشا» برعاية أميركية. وفى ظل إدراك واشنطن أن انفصال الجنوب واقع لا محالة، تركزت الجهود الأميركية بعد توقيع اتفاقية السلام على تقديم المساعدات المالية لحكومة جنوب السودان، لتمكينها من إرساء البنية التحتية الضرورية لصمودها

كدولة مستقلة بعد انتهاء الفترة الانتقالية المنصوص عليها فى اتفاقية السلام.

وهوما يصل بنا إلى المثال الآخر، ما يحدث فى المشرق العربى

شبه الجزيرة العربية (والخليج)

- إلغاء الكويت وقطر والبحرين وسلطنة عمان واليمن والإمارات العربية من الخارطة ومحو وجودها الدستورى بحيث تتضمن شبه الجزيرة والخليج ثلاث دويلات فقط.

١- دويلة الإحساء الشيعية: (وتضم الكويت والإمارات وقطر وعمان والبحرين).

٢- دويلة نجد السنية.

٣- دويلة الحجاز السنية.

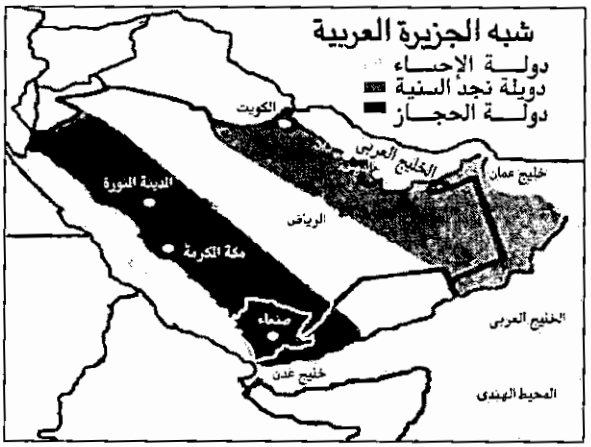

خريطة شبه الجزيرة العربية والخليج

وهو ما استمر لتأكيد خطة تمزيق هذا المشترك الثقافي الشاسع بين أبناء المنطقة

ثالثا : خطر المصطلح - مصطلح «الشرق الأوسط»

إلى جانب الخطر الغربي والصهيوني كان يروج لمفهوم جديد لتمزيق المنطقة والقضاء - في المقام الأول - على هذا المعنى الديمو - ثقافي، ويمكن أن نلاحظ هذا منذ فترة مبكرة حين يتغير مفهوم الشرق إلى مفهوم «الشرق الأوسط» وهذاالمفهوم- المعنى الأخير لا نجده في المصادر أو المراجع التاريخية فحسب، بل يكفي العود إلى بعض الروابط الرقمية العامة لنعرف الكثير عن هذا المصطلح ،وهو ما نضطر معه منذ البداية إلى استعادته.

لنحاول استعادة هذا الخط / الخطر التاريخي إلى اليوم

- كتب تيودور هرتزل، مؤسس الصهيونية (كحركة سياسية عالمية منظمة) عام ١٨٩٧ في يومياته، يقول: «يجب قيام كومنولث شرق أوسطي، يكون لدولة اليهود فيه شأن قيادي فاعل، ودور اقتصادي قائ ن المركز لجلب الاستثمارات والبحث العلمي والخبرة الفنية».
- أبرز ضابط البحرية البريطانية الفريد ماهان مصطلح الشرق الأوسط في مقال كتبه في الأول من أيلول عام ١٩٠٢ في لندن، ثمَّ استخدمه فالنتاين شيرول مراسل التايمز اللندنية في تشرين الأول عام ١٩٠٢ و١٩٠٣ في سلسلة من المقالات تحت عنوان «المسألة الشرق أوسطية»، ثمَّ أصدرها في كتاب عام ١٩٠٣.

- صدر فى عام ١٩٠٧ فى لندن تقرير كامبل بنرمان وزير المستعمرات آنذاك، الذى وضعه فى مؤتمر عقدته مجموعة من علماء التاريخ والسياسة والاقتصاد، بمشاركة عدد من السياسيين الأوروبيين وتناول الوضع فى المنطقة العربية، جاء فيه: (يكمن الخطر على الغرب فى البحر المتوسط، لكونه همزة وصل بين الشرق والغرب. ويعيش فى شواطئه الجنوبية والشرقية شعب واحد، تتوافر له وحدة التاريخ واللغة والجغرافية وكل مقوّمات التجمع والترابط، وذلك فضلا عن نزعاته الثورية وثرواته الطبيعية الكبيرة).

ويتساءل التقرير عن مصير المنطقة، إذا انتشر فيها التعليم والثقافة. ويجيب بأنه إذا حدث ذلك، فسوف تحل الضربة القاضية بالإمبراطوريات القائمة.

ووضع المؤتمر المذكور المخططات والوسائل الكفيلة لإضعاف هذه المنطقة وتسهيل السيطرة عليها وعلى شطآنها واحتواء إراداتها وطاقاتها وثرواتها ومنع تطورها وتقدمها ووحدتها .

وحدد الوسائل والأساليب للوصول إلى ذلك بما يلى:

أولا: إقامة حاجز بشرى غريب وقوى مانع، يفصل بلدان المشرق عن بلدان المغرب العربى، وإقامة قوة قريبة من قناة السويس، عدوة لشعب المنطقة وصديقة للدول الأوروبية.

ثانيا: العمل على تجزئة الوطن العربى إلى دول وكيانات متعددة، يهدف التقرير إلى إقامة الكيان الصهيونى فى فلسطين، والسيطرة على

الموقع الجيواستراتيجى المهم للوطن العربى وعلى قناة السويس، ونهب ثرواته الطبيعية والحيلولة دون تطوره ودون تحقيق الوحدة العربية.

- بدأت الصهيونية تعمّم هذا المصطلح ـ مصطلح الشرق الأوسط ـ بديلا للوطن الواحد والشعب الواحد والأمة الواحدة، نظرا لأنه ملتقى القارات الثلاث ويُشرف على أهم الممرات المائية كقناة السويس، ومضيق باب المندب، والخليج، وخليج العقبة ومضيق هرمز، ويختزن أكثر من ثلثى احتياطى النفط العالمى. وتخشى الصهيونية والاستعمار من إقامة دولة اتحادية عربية قوية وغنية ومسلحة بالثروة النفطية والقومية العربية والعقيدة الإسلامية.
- ظهر فى لندن عام ١٩٠٩ كتاب بعنوان: «مشاكل الشرق الأوسط» لمؤلفه هاملتون وضّح فيه أهمية المنطقة لأوروبا والعالم، وطالب بضرورة السيطرة عليها. وأعلن الحاكم البريطانى على الهند اللورد كيرزون عام ١٩١١ إدارة خاصة للشرق الأوسط، وكلّفها بالإشراف على شؤون فلسطين وشرق الأردن والعراق.
- اقترح الإرهابى فلاديمير جابوتنسكى عام ١٩٢٢ مشروعا لإقامة سوق شرق أوسطية. وحدّدت الحركة الصهيونية عام ١٩٤٢ أهدافها التوسعية وسيطرتها الاقتصادية على المنطقة فى مؤتمر بلتمور الصهيونى، الذى يعتبر أهم مؤتمر صهيونى بعد المؤتمر التأسيسى فى بازل على الشكل التالى: (إقامة قيادة يهودية للشرق الأوسط بأكمله فى ميدانى التنمية والسيطرة الاقتصادية) ووضع الصهاينة دراسات

ومذكرات حول «الشـرق الأوسط» فى عامى ١٩٤١ و١٩٤٢، وأنجزوا مشـروعا صهيونيا للشرق الأوسـط لمواجهة الكتاب الأبيض لحكومة الانتداب البريطانى فى فلسـطين ويتضمن المشـروع العمل على قيام تعاون سياسـى واقتصادى يمنع التصادم بين العرب واليهود، ويدمج فلسطين وبقية بلدان المشرق العربى.

- غرس يهود بريطانيا والولايات المتحدة فكرة الشرق أوسطية فى صلب السياستين الأمريكية والبريطانية خلال الحرب العالمية الثانية . وقد طُرحـت فكرة التعاون الاقتصادى بين بلدان منطقة الشـرق الأوسـط لأول مرّة فى ١٨ تشـرين الثانـى ١٩٤٣، وذلك فى اجتماع عُقد بين ممثلين عن وزارتـى الخارجية الأمريكية والبريطانية فى لندن، بمقر وزارة الخارجية البريطانية للتباحث فى تسـوية وضع الشرق الأوسط بعد انتهاء الحـرب العالمية الثانية لضمان مصالح البلدين فى المنطقة والهيمنة عليها.
- أعـد اليهودى الأمريكى د. أرنسـت بيرجمان «أحـد تلامذة حاييم وايزمان، زعيم المنظمة الصهيونية العالمية»، مذكرة قدَّمها للاجتماع، ويمثّـل فيها تهويد فلسـطين جوهر الخطة الأمريكيـة والقائمة على هجرة اليهود إلى فلسـطين العربية وإقامة «إسرائيل» فيها، وتحويلها إلى قاعدة صناعية متطورة لتكون حجر الزاوية فى المشاريع والمخططات المستقبلية للولايات المتحدة الأمريكية فى منطقة الشرق الأوسط.
- ظهرت «الشرق أوسطية» كفكرة «إسرائيلية» لأول مرة فى وثيقة أصدرها «اتحاد إيهود» بتاريخ ١٩٤٨/٣/٢٨ وتضمنّت «التصاق فلسـطين فى

اتحاد شـرق أوسطى واسـع»، ووقعها عن اللجنة التنفيذية للاتحاد المذكور: يهودا ماغنس، مارتن بوبر، ديفيد سـيناتور، جيرت ويليلم وإيزل مولهو.

وهل نحن – حقا – بعد هذا فى حاجة لنستعيد هذه الإشارات: فى العراق يوجد (الشـبك، الأرمن، الصابئـة المندائيين، الكلدان الآشـوريين السـريان، الأيزيديـين، التركمان، الكـورد الفيليين، الأكراد) وفى لبنان يتواجد (الشيعة، الدروز، المسيحيون، الأكراد، الـترك، العلويون)، وفى بلـدان الخليج يوجد (الشـيعة)، وفى سـوريا (العلويون، الدروز، الإسماعيليون، المسـيحيون، الأكراد، الترك، الشـركس)، وفى مصر (الأقبـاط، النوبيون، البربر) وفى السودان (المسيحيون فى الجنوب و المسلمون من قبائل طوائف فور ومساليت وزغاوة، فى غرب السودان).

ثمـة ملاحظات بدهية باقية هنا تأكيدا لإعادة تعريف المصطلحات الرائجة بيننا:

- إن من يقدم الرؤية هنا والشهادات ليس من بين المثقفين وحسب وإنما أضيـف إلى دور المثقفين – كما نعرف فى المؤتمر الذى عقد بجامعة القاهرة – عدد كبير من السياسـين والدبلوماسـيين والفنانيـن على أعلى مستوى ..

وهو ما أسهم فى تأكيد الوعى بالمشترك ..

- «مفهوم الهوية» الذى نسعى إليه هنا يعبر عن إنها الهوية من العالمية إلى الهوية الشرقية ..بعناصرها الرئيسية السائدة : ، الدين، اللغة، القيم، التراث، التاريخ،.. إلى غير ذلك من السـمات التى خلقت

هذا التكوين على المستوى التاريخى والاجتماعى..كما سنرى

- مفهوم الهوية ينصرف من التاريخى إلى الجغرافى إلى الثقافى فى هذه المنطقــة التى تتعدد فيها العناصر وتتحد فى الســمات الأخيرة كما سنرى

- فى هذا الإطار لابد وأن نشير إلى بدهيات يفرضها علينا تاريخ المنطقة وحاضرها، من مثل تغير أســاليب الغرب الصهيونى أو الأمريكى، وهو ما نسعى معه إلى محاولة فهم مصطلح «المشرق الإسلامى» وليس «الشرق الأوسط» بأى حال .

وما يمكن أن يقال عن إعادة النظر فى المفاهيم المعرفية أو الجغرافية يقال عن المفاهيم السياســية، فما يمكن أن يقال عن مفهوم مثل «الشرق الأوسط» على سبيل المثال - يمكن أن يقال؛ حين نردد مفهوم (الشورى) لا(الديموقراطية) و(المســاواة) لا (العدالــة الإجتماعية) وبغض النظر عن الدلالة العامة فإن الدلالة الحقيقية الصاعدة من نسيج هذه(الهوية) هى التى يجب التنبه لها ونحن نبحث عن المستقبل - المصير الواحد.

وهو ما نقترب فيه أكثر من تجليات هذا المشترك ..

□□□